جدلية العقل والنقل من منظور القرآن الكريم
نحو تفكير إسلامي ناقد

أبو نصر بن محمد شخّار

الجامعة الاسلامية العالمية ماليزيا – ماليزيا

nacer37@gmail.com

معلومات البحث

الاستلام: 2012/8/2
القبول: 2012/9/13
النشر: 2012/10/15

ISSN: 2231-8968

© 2012 Design *for* Scientific Renaissance All rights reserved

الملخص

إن من أهم التحديات التي تواجه مناهج تدريس العلوم الشرعية هو تكوين طلبة على مستوى من التفكير الناقد، لإيجاد بيئة علمية مفتوحة تسمح بتلاقح الأفكار وتقاربها، وتعمل على نقد فاعل للتراث دون الارتهان إليه والتعصب له؛ للبلوغ بالعلوم الشرعية مرتبة من التجديد والتفاعل مع الواقع دون المس بأساساته، ومن أبرز الإشكالات التي تقف عائقا أمام هذه النقلة المنهجية النوعية هي الحساسية تجاه جدلية النقل والعقل.

وبنظرة متدبرة في المصدر الأول للعلوم الشرعية نجد مكانة سامقة للعقل والتفكير النقدي، فالقرآن الكريم يعتبر العقل مصدرا أساسيا أصيلا لتحصيل المعارف، وقد أناط الله تعالى به مسؤولية التكليف وقيام الحجة، وعلّق سبب هلاك الهالكين على قعودهم عن التفكر والتعقل.

والعقل والوحي في الرؤية القرآنية متوافقان متكاملان غير متنازعين ولا متقابلين، ولا يتقدم أحدهما على الآخر ولا يصادر أحدهما الآخر، فالعقل أداة لفهم الوحي وتصديقه، والوحي وسيلة للرقي بالعقل ومنطقه ووعيه وزيادة مناعته ضد الباطل، فلا الوحي مقدم على العقل ولا العقل مقدم على الوحي، وهي مقارنة غير سديدة أساسا؛ لأنها مقارنة بين مختلفين في الطبيعة، فالوحي موضوعات ومنهج والعقل أداة ومَلَكة، ونحن نجد أن الوحي يدعو إلى أقصى درجات التعقل، بل نجده لم يقف عند عتبة الكلام عن جواز إعمال العقل وفائدته، بل جاوز ذلك إلى اعتباره مسؤولية يترتب عليها ثواب أو عقاب.

المقدمة

الحمد لله المتفرد في كماله، المتعالي بأسمائه، خلق الإنسان وكرّمه تكريما، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا، فنفخ فيه من روحه القدسية، وأخضع له ملائكته البرر الأطهار، وذلّل له الوحوش والأنعام، وسخّر له السماوات السبع والأرضين، وأنعم عليه بأدوات المعرفة، فعلّمه بها ما لم يعلم، وفتح له بها أبواب الرقي في درجات المعارف والعلوم.

وأناط –سبحانه– بتلك المكرُمات أمانة الخلافة في الأرض، لعمارتها وإصلاحها، وترك له مسؤولية اختيار سبيله ومصيره بما أودع فيه من ملكات التعقل والتفكر ليفرّق بين الحق والباطل، ورحمة منه لم يتركه وحيدا يدافع الخطوب، بل أيّده بالآيات والبينات لتكون له قبسا تدلّه على سبيل النجاة، فكانت بيناتٍ للبرهان وملزماتٍ للحجة، فلا يزيغ عنها إلا من ركب هواه وعطّل فكره، وكانت النصيحة منه سبحانه دوما بالتعقل والتفكر والتذكر شكرا للنعمة وضمانة للنجاة.

ولقد زلت أقدام كثير ممن خلق لما عطلوا تلك الأدوات وحكموا بنسبيتها، أو استمسكوا بظواهر الحس وأهملوا بواطن الفكر والعقل، فقصُرت أنظارهم على ما تصل إليه أيديهم، وأسدلوا ستار الجهل والوهم على الغيب.

وطعن آخرون كبد الحقيقة لما ادّعوا تناقض العقل والدين، فكرّسوا للحميّة والتقليد، فأسنت العلوم الشرعية وتجاوزها الواقع المتسارع، فترى التفكير والتمحيص والنقد في كل باب وناد، وما إن ترد أعتاب الدين حتى تُصَدَّ وتمنع، ويُترك المجال فسيحا للتقليد والعصبيات، و"كل حزب بما لديهم فرحون"، وبين هذا ذلك تبقى إشكالات تحفِّزنا للبحث عن الرؤية القرآنية لإعمال العقل، ولموقعه من نظرية المعرفة، وعلاقة الوحي بالعقل، والمنقول بالمعقول، محاولين أن نجد جوابا مقنعا معقولا يضع بلسم الحقيقة على هذه الأسئلة الجوهرية.

ومصدرنا الرئيس في هذه المسيرة هو كتاب الله تعالى العزيز، مستعينين ببعضٍ من كتب التفسير واللغة لبيان ما غمُض من المعاني، وكذا الرجوع إلى بعض ما أُلِّف في نظرية المعرفة للوقوف على أهم الإشكالات المتوجهة إلى هذا الموضوع في الفكر الإنساني.

المبحث الأول: العقل ونظرية المعرفة

المطلب الأول: نظرية المعرفة

إن المقصود بالنظرية هو المفهوم الكلي الذي يجمع شتات الموضوعات والإشكالات المتعلقة بالمعرفة، وأما نظرية المعرفة "فهي دراسة منظمة أو بحث في المعرفة من حيث أصلها وماهيتها وإمكانها، وطرق الوصول إليها، وطبيعتها وحدودها وقيمتها، أي بحث في المشكلات الناشئة عن العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف"[1].

فنظرية المعرفة هي قاعدة تصورية تجيب على الإشكالات الحاصلة بين المعرفة والذات العارفة، وكذا الإشكالات المتعلقة بأصل المعرفة وحدودها، ونلاحظ أن هنالك بعدا هاما تم إغفاله في إشكالات هذه النظرية وهو العلاقة بين الذات العارفة وخالقها، باعتباره مصدرا للمعارف وخالقا لأدواتها وموضوعاتها، ويمكن أن يندرج هذا الأمر تحت إشكالية حدود المعرفة ومصادرها.

المطلب الثاني: العقل في نظرية المعرفة

إن نظرية المعرفة – كما رأينا- صياغة عامة لاتجاه معين في الإجابة على الإشكالات الواردة على المعرفة، ولا ريب أن العقل يُعتبر محور تلك الإشكالات باعتباره أداة أساسية من أدوات اكتساب المعارف وفحصها، لذا كان البحث في الإشكالات المتعلقة بالعقل من صميم مباحث نظرية المعرفة.

ولا ريب أن إنكار العقل باعتباره أداة لاكتساب المعارف سيشل الفكر الإنساني، كما أن إثباته والقول بنسبيته وعدم إمكان مطابقته للحقائق سيؤدي حتما إلى تخطئة كل المعارف البشرية ومآل ذلك في الأخير إلى سفسطة لا مخرج منها.

ولقد تباينت المذاهب الفلسفية في نظرتها إلى هذه الإشكالية، فأنكر البعض كون العقل أداة لاكتساب الحقائق، وحصره آخرون في بعض المدركات الفطرية، وقال غيرهم بنسبيته في مطابقته للواقع، فأسدلوا بذلك الستارعلى الغيب وحجزوا مواهب الإنسان ومعارفه في عالم الظواهر[2].

وبفرض الإذعان إلى أن العقل أداة لاكتساب المعارف، يبقى الإشكال: كيف يمكننا الحكم على صدقيتها ومطابقتها للحقيقة والواقع، وهل يمكن للعقل أن يكون الفيصل في هذا الأمر، فيذهب "أوغست كونت[3]" في

---

1. الكردي، *نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة*، ص64.

2. العاملي، حسن محمد مكي العاملي، *نظرية المعرفة (المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات)*، لبنان: الدار الإسلامية، ط1، 1411هـ/1990م، ص6.

3 – أوغست كونت (19 يناير 1798 – 5 سبتمبر 1857) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، يعتبر الأب الشرعي والمؤسس للفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع الحديث, ولد في مدينة مونبلييه وتخرج من مدرسة البوليتكنيك، منأهم مؤلفاته: "محاضرات في الفلسفة الوضعية" و"نظام في السياسة الوضعية". انظر: موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، 1990، الجزء الخامس ص 273.

فلسفته الوضعية إلى أن الحقيقة والبطلان دائران بين قبول المجتمع ورفضه ولا دور للعقل ومدركاته في هذا الحكم، أما بيكون في فلسفته الحسية فيرى أن التجربة هي الحَكَم والفيصل، ويجعل الأمريكي "ويليام جيمس" الحقيقة تدور مع النفع وجودا وعدما في فلسفته البراغماتية، أما أصحاب الفلسفة النسبية فقد جعلوا الحقيقة نسبية تدور مع الزمان والمكان، والفلاسفة المسلمون ذهبوا إلى أن حقيقة القضية يكمن في مطابقتها لواقعها، وهذا يختلف باختلاف القضايا[4].

فيبدو جليا –مما سلف– أن الفصل في هذه الإشكالات ضروري لبناء نظرية إسلامية للمعرفة، لأنها إشكالات سابقة على موضوعات المعرفة، والإشكال الجوهري الذي يتعلق بالغيب والإلهيات هو: مدى اعتبار العقل أداة لاكتساب المعرفة ومعيارا لصدقيتها، فـ " ... الباحثين في الفلسفة منقسمين إلى طائفتين: إلهية ترى نطاق الوجود أوسع من المادة، ومادية تنظر إلى عالم الوجود بمنظار ضيق، فتحصره في المادة والطاقة، فما هذا إلا لاختلافهم في أدوات المعرفة، فمن يرى أن كلا من العقل والحس أداة للمعرفة يقول بالطبيعة ما وراءها، ومن يلغي العقل، ويحصر أداة المعرفة في الحس، يجنح إلى المادة وينكر ما وراءها"[5].

ويلخص لنا تيشزهولم[6] الجدلية بين الغيب والعقل في ثلاث قضايا جدلية [7]:

- الوجداني يقول: لدينا معرفة بوجود الله تعالى وببعض الحقائق الدينية، لكن ليس بمقدور العقل والخبرة أن تفضي إلى مثل هذه المعرفة، إذن هناك مصدر آخر للمعرفة إضافة إلى العقل والخبرة.
- واللاأدري الديني يقول: ليس هناك مصدر آخر للمعرفة إضافة إلى العقل والخبرة، وليس بمقدور العقل والخبرة أن تفضي إلى معرفة الله تعالى، إذن ليست لنا معرفة بالله تعالى.
- وآخر يقول: بأنه ليس هناك مصدر آخر للمعرفة بالإضافة إلى العقل والخبرة، ولدينا معرفة بوجود الله تعالى وببعض الحقائق الدينية، ولذا بمقدور العقل والخبرة التدليل على وجود الله تعالى وعلى بعض الحقائق الدينية، وذلك بإثبات وجود الله تعالى بحقائق الطبيعة.

---

[4]. المرجع السابق.

[5]. المرجع السابق، ص14.

[6] – رودريك م. تيشزهولم (توفي عام 1999): فيلسوف أمريكي معروف بأعماله حول نظرية المعرفة والميتافيزيقيا وفلسفة التصور. حصل على الدكتوراه في جامعة هارفارد. شغل منصب رئيس "المجتمع الميتافيزيقي في أمريكا" في عام 1973. من مؤلفاته:

التصور: دراسة فسفية، أسس المعرفة، في الميتافيزيقا. وغيرها. انظر:

Dordrecht, 1975.Critical essays on Chisholm's metaphysics and epistemology.

[7]. رودرك م . تيشزهولم، *نظرية المعرفة*، تعريب: د. نجيب الحصادي، مصر: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط1، 1995م، ص95.

والقرآن الكريم –كما سيأتي– له منهج متين يجمع بين قولة الأول والأخير، ويقضي على أوهام الأوسط، فالله تعالى يقرر أن مصادر المعرفة الأساسية للإنسان هي العقل والحواس، ولكنه سبحانه يصاحب تلك الأدوات بعنايته ووحيه فيعصمهما عن الزلل بما أقام من حجج ودلائل في الكتاب المسطور والمنظور، وهذا ما سنتناوله في المبحثين القادمين بعون الله وتيسيره.

المبحث الثاني: جدلية العقل والنقل

المطلب الأول: ماهية العقل في القرآن

مما لا ريب فيه أن العقل منّة عظيمة على الإنسان، فهو سر ارتقائه دون غيره من الحيوانات، ولعل هذا هو سر بحث الإنسان عن ماهيته ومحله من جسد الإنسان، بحثا –ربما– عن إمكان دفعه في وظيفته أكثر، أو الإصلاح من شأنه إذا ما اعتراه نقص أو وَهَن.

جاء في مقاييس اللغة" (عقل) العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل"[8]، فيبدو جليا من التعريف أن العقل في الأصل اللغوي ليس اسما لأداة متعينة شاخصة، وإنما هي مصدر لفعل "عقل" بمعنى حبس، والحبس عن الفعل السيء والقول القبيح هو من آثار ملكة التعقل وحكمة التفكر الموجودة عند الإنسان.

والقرآن الكريم لم يُعر اهتماما كبيرا لمكان وجود العقل من الجسد، وأغلب حديثه كان عن وظائفه كالتعقل والتفكر والتذكر والتفقه والتدبر...الخ، ولم ينسب فعل التعقل صراحة إلى جهة متعينة في الجسد إلا في قوله تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" [9]، وفي هذه النسبة دلالة على أن القلب هو أحد الأعضاء التي تتكشف فيه وظيفة التعقل وآثارها من الانشراح أو الحرج، ومع وجود تلك الأداة قد لا يحصل التعقل، كما أنه لا يلزم من وجود حاسة العين صحة الإبصار، وفي ذلك يقول تعالى: " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[10].

ومهما تكن الأدوات والحواس المساعدة في عملية التعقل أو التي تتكشف فيها آثار عملية التفكر انشراحا وحرجا – فالذي يعنينا في سياق الكلام عن نظرية المعرفة هو وظيفة التعقل نفسها، باحثين عن حدودها ومصادرها وموانعها في التصور القرآني، وأتصور أن الجدل الذي خاضه بعض فلاسفة المسلمين حول ماهية العقل وكنهه

---

[8]. ابن فارس، *مقاييس اللغة*، مادة (عقل)، 69/4.

[9]. الحج، 46.

[10]. الأعراف، 179.

حيدٌ عن المنهج القرآني الذي ركّز على وظائف التعقل وتعلق مسؤولية الجزاء عليها، ولم يشر إلى الماهية إلا إشارات عابرة.

ولعل المتكلمين كانوا أقرب إلى المنهج القرآني في تعريف العقل "إذ عرفوه بأنه مناط التكليف، وفسر الأشعري[11] مناط التكليف بأنه العلم ببعض الضروريات، كما عرفه القاضي[الباقلاني] بأنه العلم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ومجاري العادات، أما الرازي فقد فسره بأنه صفة غريزية يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات"[(12)]، وهذه التعريفات يظهر فيها الاهتمام بوظيفة العقل وعلاقته بالتكليف، وهي أقرب إلى المنهج القرآني.

المطلب الثاني: موقع النقل من العقل

يولد الإنسان خاليا من كل ما قد يسمى معارف، غير أنه يُزود بطاقة استعداد فطرية لبناء منظومة من الأفكار عما يجول حوله، وذلك بالتوسل بالأدوات التي أكرمه الله تعالى بها من سمع وبصر وشم وذوق ولمس وقدرة على الإدراك والتحليل والقياس، "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[(13)]، يقول الإمام الرازي: "إن النفس كانت في بداية الخلقة خالية من جميع العلوم، إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر، فإذا أبصر الطفل شيئا مرة بعد أخرى ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول في سائر الحواس، فيصير حصول الحواس سببا في حضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل..."[(14)].

وتتطور تلك المدركات لدى الإنسان من كونها مجرد تصورات خامة إلى معارف متكاملة تصديقية، وعملية الترقي هذه تحصل بفعل تصرُّفه في تلك التصورات البسيطة المجردة، ببناء العلاقات عليها ومقارنة بعضها ببعض، وتفضيل شيء على آخر، وبالقياس والتركيب والاستدلال...الخ، ثم تنمو فيه قوة التعقل والتفكر التي تمكِّنه من التصرف أعمق في مدركاته الحسية والخيالية، وبنحو هذه الطاقة واتصالها بالعالم الخارجي تنمو العلوم وتتطور في مختلف المجالات[(15)].

---

[11] – هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشرالأشعري، توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ببغداد، مؤسس مذهب الأشاعرة العقدي، له حوالي خمسين مؤلفا. انظر: طبقات الشافعية (245/2).

[12]. الكردي، نظرية المعرفة، ص607.

[13]. النحل، 78.

[14]. الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، *التفسيرالكبير* أو *مفاتيح الغيب*، طبع دار الفكر، ط 3، 1405هـ/1985م، 91/10.

[15]. المظفر، محمد رضا، *المنطق*، لبنان: دار التعارف للمطبوعات، دط، 1414هـ/ 1995م، ص13-14.

ويقسم أهل المنطق مدركات العقل إلى قسمين: تصور وتصديق[16]، والتصور هو إدراك غير حكمي، لا يحتاج إلى عملية عقلية لتصوره، فهو تصور الموجود على ما هو عليه بالاعتماد المباشر على الحواس سمعا وبصرا وذوقا وشما وإحساسا، وأما التصديق فهو " إدراك يستلزم تصديق النفس وإذعانها"[17]، مثال ذلك: إدراك أن للمثلث ثلاث زاويا هو تصور غير حكمي تقتنصه الحواس مباشرة من الواقع المشاهد، أما إن قلنا "إن مجموع تلك الزوايا يساوي زاويتين قائمتين" فتصديق هذا الإسناد الخبري يحتاج إلى استدلال وإقناع بالاستعانة بالبدهيات الأساسية المغروسة في الوعي الإنساني، يقول الإمام الطاهر بن عاشور: "العقل مقرّ الإدراك كلّه، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتِها، وهي العلم بالتصوّرات المفردة، وللعقل إدراك آخر وهو إدراك اقتران أحد المعلومين بالآخر، وهو التصديقات المنقسمة إلى البديهيّات : ككون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان ، وككون الكلّ أعظم من الجزء، وإلى النظريات وتُسمّى الكسبيّات، وهي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التّفريق، مثل أن يحضر في العقل : أن الجسم ما هو؟ وأن المحدَث بفتح الدال ما هو؟ . فإن مجرد هذين التصوّرين في الذهن لا يكفي في جزم العقل بأن الجسم محدث بل لا بد فيه من علوم أخرى سابقة وهي ما يدلّ على المقارنة بين ماهية الجسمية وصفةِ الحدوث" [18].

ومجال التصديق منحصر في"النسبة في الجملة الخبرية عند الحكم والإذعان بمطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها"[19]، لذا فجميع الأخبار عن الله تعالى وصفاته وعن الماضي والمستقبل الواردة في القرآن والسنة هي من قبيل التصديقات، بل وحتى القضايا الإنشائية الواردة فيهما من حيث ثبوت ورودهما عن الله تعالى ورسوله هي من التصديقات من هذه الناحية.

فالقرآن الكريم يشغل مجال التصديقات في عملية التعقل، ولا يمنع هذا أن يكون في القرآن الكريم ما يُعتبر من التصورات، لكن يُهدف منها الوصول إلى بناء التصديقات، بل إن بعض التصديقات في القرآن الكريم أقرب إلى التصورات منها إلى التصديقات لقوة وضوحها وجلائها، كارتباط وجود الله تعالى بالموجودات ارتباطا سببيا ينقدح في الذهن في أول نظرة واعية في الآفاق "أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"[20].

ونجد أن الله تعالى في كتابه العزيز عامل الإنسان باحترام هذه المنهجية في تفكيره، والتي هي أساسا من خلقه وإبداعه سبحانه، فلم تكن آيات الذكر مفاهيم دوغمائية، بل كانت تنساب مع التسلسل المنطقي الذي يبني به الإنسان أفكاره وتصديقاته عادة، فانطلق معه من التصورات الجلية، ثم صاحبه في البناء الاستدلالي الواضح

---

16. المصدر نفسه، ص15.
17. المرجع نفسه، ص14.
18. ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، دط، 1997 م، 233/13.
19. المرجع نفسه.
20. إبراهيم، 10.

البسيط للوصول أخيرا إلى تصديقات إيمانية راسخة، وهو في كل ذلك يستفز العقل إلى مزيد من التفكر والتذكر والتدبر[21].

فالله تعالى خلق العقل وأنزل الوحي، وجعل العقل مناط تصديق الوحي وإدراكه، ويستحيل أن يكون في الوحي ما لا يتناسب مع مدركات العقل، وهذه الاستحالة هي حقيقة واقعية يمكن فحصها، وليست قضية إيمانية يؤمن بها المسلم استسلاما دون أن يعيشها في جنبات القرآن في رحلته التدبرية، فالقول بأن الوحي متعال على العقل أو قاض عليه كلام متناقض؛ لأن العقل سابق على الوحي وأداة لاستقباله وقبوله أو رفضه، فلو كان في العقل قصور –أصيل في أصل الخلقة– عن إدراك الوحي فلن يكون الوحي حجة على أحد!، لأن الإنسان حينئذ يكون فاقدا للأهلية كالصبي والمجنون غير مكتملي العقل، وكذلك لو أُنزل القرآن الكريم بلغة لا يعيها العقل البشري ولا يستطيع أن يقيم عليها دليلا يساعده على تصديقها – فلا حجة على العقول لقبول الوحي، بل إن الوحي كان بلغة تساير هذا العقل وتقنعه ليفتح له أبواب القبول، بل نجده تعالى يستعمل هذا المنهج العقلاني حتى مع أقرب عباده إليه وهم الأنبياء: "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ"[22]، فقد كان الله تعالى قادرا أن يقول له "سلّم لا تشك ولا تسمع لهواجسك وإشكالاتك العقلية فالوحي مقدم على العقل وإلا فأنت من الهالكين..."، بل وجهه الله تعالى إلى ما يشفي به غليل شكوكه، لأن التعقل أمر مقبول ومطلوب، وهو الذي قاده للبحث عن الحقيقة حتى هداه الله تعالى إليها.

وإرادة الله تعالى أن يختار الإنسان ما يؤمن به، ودور الوحي أن يوجهه في اختياره ذلك ويعينه بالأدلة والبراهين والتنبيه على الأخطاء والمغالطات، ولو شاء الله تعالى لآمن من في الأرض جميعا بأصل الخلقة، فقد كان تعالى قادرا أن يجبل البشر بقدرته على قبول الوحي ويقهرهم على الإيمان، أو أن يجبرهم على الإيمان بقهر العذاب الدنيوي، فقد كان قادرا سبحانه أن يعلق الحياة على الإيمان به، فلا حياة إلا بالإيمان، لكن إرادة الله تعالى أن يجعل الإنسان حرا في اختياره، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"[23]، "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"[24]، فالعقل وحده كاف في إدراك الوحي الإلهي كله وتصديقه، لأن الوحي

[21]. ولعل كثيرا ممن ولد في بيئة إسلامية وتلقى الدين وراثة لا يدرك هذه الخاصية الرائعة في القرآن الكريم، لكن عندما نقرأ لأناس دخلوا الإسلام بفعل قراءتهم الواعية للقرآن الكريم نجد في حديثهم اعترافا بهذا النسق العقلاني المتين في كلام الله تعالى، انظر مثلا: جيفري لانغ، حتى الملائكة تسأل.

[22]. يونس، 94.

[23]. يونس، 99 –100.

[24]. الكهف، 29.

أُنزل بلغة عقلانية يفهما العاقل ويعيها وذلك عين مناط الحجة على عباده " الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[25]، "حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [26].

فالعقل والوحي في الرؤية القرآنية متوافقان متكاملان غير متنازعين ولا متقابلين، ولا يتقدم أحدهما على الآخر ولا يصادر أحدهما الآخر، فالعقل أداة لفهم الوحي وتصديقه، والوحي وسيلة للرقي بالعقل إلى إدراك الحقائق بإقامة الأدلة والحجج عليها، ولم يأمر الوحي الإنسان أن يعطل عقله ويستقبل الوحي بحاسة أخرى!، بل جاء ليزيد من مناعة ذلك العقل ضد الباطل ويرفع من منطقه ووعيه، لذا ترى عشرات الآيات في القرآن تُختتم بـ " لعلكم تعقلون، لعلكم تذكرون، لقوم يعقلون، لقوم يتفكرون، لأولي الألباب..."، وكل ذلك تحفيز للعقل البشري إلى مزيد من التحليل والتفكير، لأن القرآن منتهى الحق ومهما تعالى العقل في درجات التفكر والتمحيص والتعقل إلا واقترب من الوحي أكثر، بخلاف الباطل الذي يحاول أصحابُه دوما منع العقول وتحجيرها لأنها –في النهاية– سترجع عليه بالنقض، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"[27].

قد يحتج البعض على هذا التصور بوجود عبادات وأوامر في القرآن غير معقولة المعنى، لكن علينا أن ندرك أن التصديقات العقلية عملية تراكمية متكاملة، والله تعالى راعى هذا البناء المنهجي حين أنزل القرآن الكريم منجّما، فارتقى بالناس ابتداء إلى التصديق بوجود إله وأقام على ذلك البينات المنطقية الجلية من ذلك قوله تعالى: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ"[28]، ثم ارتقى بهم مرة أخرى لإفراد الله تعالى بالعبودية والخضوع "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" [29]، وبعد أن يستقر الإيمان في القلوب بهذه العملية الفكرية الواعية وتؤمن بالخالق وأنه أعلم وأحكم، وأنه رحيم بهم ولا يشرّع لهم إلا ما هو الأصلح لهم[30]، وبعد كل هذه المقدمات العقلية المقنعة سيكون عقل الإنسان مقتنعا تماما أن ما يُأمر به من التكاليف والأوامر إنما هو عين الصواب والمصلحة الكاملة، وأن الآمر له حق الطاعة لأنه الخالق والمالك، ولحكمة ما يقول تعالى: "وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ

---

25. يوسف، 1-2.

26. الزخرف، 1– 3.

27. الأنفال، 20 – 22.

28. الطور، 35-36.

29. النمل، 59، 60.

30. في القرآن آيات كثيرة تقرر أن الله تعالى لا يريد بعباده إلا الأصلح لهم، من ذلك: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" (يونس، 57–58) ، "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى" (طه، 123–124).

بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[31]، فالعقل السليم سيتدرج في تلك المراتب إلى أن يصل درجة التسليم العقلي بأن الله تعالى أعلم منه وأحكم وأنه مستحق للعبادة فيكون بذلك مستعدا لقبول كل ما يأتيه منه تعالى، فكل من حاول القفز على هذه العبادات باسم العقل فهو من التعقل أبعد؛ لأنه حرق مراحل كثيرة في البناء المعرفي والمنهجي.

أما الدعوة إلى تحجير العقول بدعوى أن الوحي مقدم على العقل فهي دعوى باطلة مستبطنة أمرا خطيرا، لأن العقول لما تتعطل فلابد وأن تستسلم لعقل آخر، وحينئذ لن تكون في مأمن من غارات الباطل، لأن القائل بذلك –نفسه– يستعمل قواه العقلية في فهم النص وقد يخطئ في ذلك ويصيب، وكثيرا ما تُتخذ هذه الدعوة للتستر على التناقضات الصارخة في فكر ما، فإن كان هذا الأمر مقبولا فالأحرى به أن يكون مقبولا –كذلك– في كل الديانات، إذ نجد —مثلا– أن القائلين بالتثليث يحصنون تلك الهرطقات الغريبة بمنع العقول أن تنفذ إليها بالتحليل والنقد، فلا يبقى أمام ذلك الناسك إلا أن يقول: نقول بالتثليث بلا كيف! والوحي مقدم على العقول!

وإذا علمنا أن هنالك من يلوي لسانه بالوحي على غير مراد الله تعالى أدركنا أن إعمال العقول هو الضمانة الوحيد لصيانة الشرع من الضلالات "وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"[32].

فالوحي ليس مقدما على العقل ولا الوحي مقدم على العقل، وهي مقارنة غير مقبولة أصلا لأنها مقارنة بين مختلفين في الطبيعة، فالوحي موضوعات ومنهج والعقل أداة، فمهما تحررت العقول اقتربت من الوحي، ومهما تحرجت أو تعصبت لأيديولوجيات إلا وابتعدت عن الحقيقة، لهذا نجد أن الله تعالى يقرر أن أولي الألباب هم المنتفعون بوحيه: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"[33]، " أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"[34]، " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"[35].

فبين العقل والقرآن تكامل أصيل، ولا وجود لإشكالية الوحي والعقل في الإسلام؛ لأن الإسلام مطابق لمبادئ العقل وحقائق الواقع، فلا خوف من أية دعوة إلى عقلنة الفهم القرآني، أما إن غاب هذا التفكير القرآني العقلاني فإن الدعوات إلى تحجير العقول لن تزيد العقلاء إلا شكا في الوحي ولهم الحق في ذلك، لأن علامة الحق هو البرهان المقنع وعدم الخوف من الوقوف أمام محك التمحيص، وحيثما غُيِّب البرهان فثمة كل الضلالات.

---

31. البقرة، 240 – 242.

32. آل عمران، 78.

33. ص، 29.

34. الرعد، 19.

35. ق، 37.

وافتراض تسامي الوحي على العقل وتقدمه عليه حرم الإنسانية من أن تتفاعل مع مضمون هذا الوحي وبرهاينه وتأسيسه الفكري المتين، فكأن المطلوب من الإنسان أن يؤمن أولا – من أي طريق آخر- ثم يأتي إلى الوحي وهو مسلّم لكل ما فيه.

المطلب الثالث: المعرفة اليقينية في القرآن

واليقين معناه " أن تصدق بمضمون الخبر ولا تحتمل كذبه، أو تصدق بعدمه ولا تحتمل صدقه، أي أنك تصدق به على نحو الجزم وهو أعلى قسمي التصديق"[36]، والمقصود بالخبر هنا هو الإسناد الخبري عموما.

ونجد أن الله تعالى يحثّ الإنسان على الترقي في درجات التصديق والإيمان، بل ويوجب ذلك عليه ولا يعتبر إيمانه السطحي شيئا: " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ"[37]، كما نجد أن القرآن الكريم يرفع من شأن المؤمنين الراسخين في اليقين "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ"[38]، ولم يعتبر الله تعالى الإيمان القولي إلا مقدمةً تنتظر أن يصدّقها العمل أو يكذّبها، لأنه لا يدفع الإنسانَ إلى ترك هواه وشهواته إلا إيمانٌ صادق: "أَلم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ، أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"[39]، فكان بذلك إيمان المنافقين قول بلا تصديق: "وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ[40]، كما نجد الكثير من الآيات القرآنية تشير صراحة إلى وجود تفاوت في مراتب الإيمان والمعرفة، وأن هذا التفاوت تترتب عليه نتائج خطيرة تتعلق بالهدى والضلال، "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ"[41].

فالله تعالى في خطابه للعقل لم يهمل مراتب التصديق بل أخذها في الاعتبار في إقامة حججه وبراهينه، ووصف المنتفعين بكلامه بالموقنين"هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[42]، فالقرآن يقيم حججه على أساس أنها

---

36. المظفر، *المنطق*، 18.
37. الحجرات، 14.
38. السجدة، 24.
39. العنكبوت، 1– 4.
40 . النور، 47-48.
41. الأنعام، 148.
42. الجاثية، 20.

براهين يقينية وليست تخمينات وظنون، وهذا ما يزيد للعقل البشري استفزازا ليتماهى مع هذا الوحي البليغ ويطلق العنان لقدراته الإدراكية لتسبر أغوار هذا النص متين النظم والبيان والاستدلال.

ولا ريب أن العقل البشري وحده نسبي في استولاد الحقائق الجديدة وقد يخطئ في ذلك ويصيب، ولكنه لن يخطئ وهو بمعية من ينير له الطريق ويصف له البراهين تباعا حتى يصل به إلى اليقين، لهذا جعل الله تعالى مناط اليقين هو البينات القرآنية، ليس بحفظها والوقوف على حروفها وحجب العقول عن سبر أغوارها، بل بتعقل مفاهيمها وإطلاق عنان الفكر في تتبع براهينها وبيناتها ومضامينها الكونية:"وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ"[43]، "هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[44]، "وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"[45].

والأصل أن الدعوة إلى بلوغ مرتبة اليقين تحفز عملية التدبر والتفكر والتعقل وتدفعها إلى الحراك والغوص في نصوص الوحي ومظاهر الكون للرقي إلى تلك المرتبة السامقة، ولكنا نجد أن مفهوم اليقين قد انحرف عن مفهومه الأصيل، فأصبح لا يعني عند الكثير من الناس أكثر من مجرد لقلقات اللسان، فغاية الواحد منهم أن يقول بملء فيه "إني متيقن من هذا الأمر"، أو "أني أقطع بهذا"، وربما يذهب بعض المسلمين أبعد من ذلك فيتصورون أن درجة يقينهم تتناسب طردا مع شدتهم على المخالف! فتراهم سليطي اللسان تكفيرا وجرحا لكل من خالفهم، بدعوى اليقين والقطع، ولكن ما أن ترافقه قليلا في دلائل ذلك اليقين فلا تجد شيئا ذا بال! لذلك شاع التضليل والتكفير وقلّ اليقين والإيمان.

والأصل أن اليقين يسبقه عملية وجدانية تعقلية في النظر إلى الدلائل والبراهين حتى تصل بالمرء بذاتها – دون ادعاء ظاهري– إلى اليقين بصدقها وعدم احتمال غيرها، وهذه العملية هي نسبية في البساطة والتعقيد، وأبسط يقين يمكن الوصول إليه هو اليقين بوجود الله تعالى ووحدانيته، لكثرة الأدلة على ذلك ووضوحها وبساطتها، ونجد أن القرآن يرافق المرء في مسيره نحو اليقين، من ذلك قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[46]، فترى الرحيم ينبه الإنسان إلى ما حوله من البراهين المبينة على العناية الإلهية، وأنه القادر الحكيم الرحيم الخالق، فأنى لماء وتراب

---

[43]. السجدة، 24.

[44]. الجاثية، 20.

[45]. الجاثية، 4.

[46]. النحل، 10 – 14.

أن يصنعا شجرا من أزهى الألوان، وزرعا وزيتونا وتمرا وعنبا من أشهى الأذواق؟. ويقول تعالى: "يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ"[47]، فمن كان يرعاك يا ابن آدم وأنت وحيد في ظلمات الأرحام، ومن صنعك وشق سمعك وبصرك: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ"[48].

والقرآن الكريم لم يعتبر العقل مناطا للحجة والهداية فحسب، ولم يترك الأمر اختيارا للمرء إن شاء أعمل عقله وإن شاء أهمله، بل علّق على ذلك مسؤولية جزائية عظيمة، تجعل من التفكر أمرا بالغ الخطورة، وذهب أبعد من ذلك في مصاحبة الإنسان في مسيرة التفكر ففضح له المعيقات التي قد تعوقه عن مهمته تلك، وهذا ما سنتناوله في المبحث القادم بتوفيق من الله تعالى وعون.

المبحث الثالث: مسؤولية التعقل وحواجبها

المطلب الأول: إعمال العقل مسؤولية لها جزاء

نجد أن القرآن الكريم لم يعتبر عملية التعقل والتذكر عملية إنسانية يتمتع بها الفرد والجماعة فحسب، بل –إلى جانب ذلك– جعلها مسؤولية يجازى عليها المرء أو يعاقب، ولذا كان حريا على المسلم أن يكون يقظ الفكر حديد البصيرة فيما يعتقد وما يحمل من تصورات عن الله تعالى واليوم الآخر والحياة عموما، وهذا يستدعي منه أن يحذر مما يحجب نور العقل ويرذي به إلى متاهات التقليد الأعمى المذموم، وأن يعلم أن الله تعالى سيحاسبه على ما أودع فيه من أدوات التعقل "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا"[49].

والله تعالى قبل أن يحمّل الإنسان هذه المسؤولية أقام عليه الحجة فيما سيسأل عنه يوم الدين والجزاء، "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا "[50]، وأساس الحجة هو

47. الزمر، 6.
48. الانفطار، 6 – 8.
49. الإسراء، 36.
50. النساء، 16.

إقامة البرهان[51]، وقد سمى الله تعالى وحيه بالبرهان "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا"[52]، وتصديق الوحي والرسل لا يكون إلا باستعداد العقول لنقد ما تحمل من موروثات والنظر فيما وفد إليها من الوحي، وهل هلك أعداء الرسل إلا بحجر عقولهم على ما وجدوا عليه آباءهم، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"[53]، ولم يهلك آباؤهم كذلك إلا بتحجُّر عقولهم "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"[54]، وفي تركيز الآية على المترفين دلالة على أن من أسباب عمى البصير شدة الأهواء والحظوظ، وهو ما سنراه لاحقا إن شاء الله تعالى في حواجب التعقل.

ويزيد القرآن هذه المسؤولية جلاء لما يحكي قولة أهل النار يوم القيامة : "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ"[55]، ويصف الله تعالى أهل النار بقوله: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" [56]، وغيرها من الآيات الناصة على أن مناط النجاة إعمال العقل وتحريره من أغلال التقليد للأموات والأحياء على السواء "وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا "[57].

والإشكالية أن هذه الآيات الكثيرة جدا –والتي تأمر بتحرير العقول من إصر التعصب والتقليد والآمرة بتفعيل أدوات التعقل التي منّ الله تعالى بها على عباده– بطل مفعولها عند كثير من المسلمين الذين ورثوا الدين عن آبائهم، فهم يتصورون أنهم غير معنيين بتلك الآيات وأنها آيات لغير المسلمين فقط، وكأن الله تعالى — وحاشاه– حاباهم دون غيرهم فولدوا في بيئة إسلامية غير مبتَلَين ولا مختَبَرين!، أما الآخرون فقد ظلمهم —وحاشاه تعالى– لما ولدوا في بيئة يهودية أو نصرانية أو بوذية، وهذا تقوّل على الله العدل تعالى من غير بينة، والحق أن الكل مبتلى والكل مطالب أن يفحص ما يرد إليه من أفكار وتصورات، ويعرض كل ما يحول بخلده على كلام الله تعالى المهيمن، والكل معرَّض أن يترك مذهب آبائه أو بعضا من أفكارهم، تماما مثل ذلك الكافر المطالَب أن يخضع لحجة الله تعالى متى ظهرت له، والكل عند الله تعالى سواء في الابتلاء والاختبار ولا يظلم ربك أحدا، ولما يدرك

51. جاء في لسان العرب: "الحجة : البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة...والحجة الدليل والبرهان". ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، *لسان العرب*، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر، دط، 1388هـ/ 1967م، م2/ 228.

52. النساء، 174.

53. البقرة، 170.

54. الزخرف، 23 – 25.

55. الملك، 10.

56. الأعراف، 179.

57. الأحزاب، 67.

المسلم أنه لا معصوم إلا وحي الله تعالى سيكون مستعدا للنظر بوعي في كل ما يرد إليه من تراث، ولا ضمانة لمتعصب لبشر من غير بينة ولا برهان، مهما علا ذلك الشخص في مراتب التعديل، ما لم يزكه الله تعالى بوحي منه.

وفي سبيل صقل هذه الملَكة التعقلية –التي هي سبيل النجاة– نبّهنا الله تعالى إلى كثير من المؤثرات التي قد تغشى العقول وتفسد بصيرتها.

المطلب الثاني: حواجب التعقل الرشيد

القرآن الكريم لم يقف عند عتبة الكلام عن فائدة إعمال العقل بل جاوز ذلك إلى اعتباره مسؤولية يترتب عليها الجزاء والعقاب –كما مر آنفا–، وذهب أبعد من ذلك لما فضح المؤثرات التي قد تغشى العقل وتقعده عن وظيفته السامية، وإنا نلحظ أن كتب علم الكلام قليلا ما تتحدث عن هذا الموضوع الخطير الذي يتعلق بالهدى والضلال، في حين نجدها قد حشيت بالكثير من المباحث التي يمكن الاستغناء عنها.

بالرغم من الآيات الكثيرة الحاثّة على إعمال العقل وإطلاق السمع والبصر تدبرا وتفكرا ونظرا في آيات الله المسطورة وآياته في الآفاق– نجد أن طائفة كبيرة من البشر لا يضطلعون بهذه المسؤولية "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[58]، والله تعالى في هذه الآية الكريمة لم يقل "ليس لهم قلوب يفقهون بها" بل أثبت لهم القدرة على التفقه لكنهم وبإرادتهم عطلوا تلك الوظائف فكانوا كالأنعام، بل أضل منها لعدم امتلاك الأنعام لتلك المؤهلات، وهذا المصير المشؤوم المنصوص في الآية لم يكن إلا للغفلة عن التنبيه الإلهي: " وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً"[59].

ولخطورة هذا المصير التعيس نبهنا الله تعالى إلى الحواجب والغواش التي تجعل الإنسان أحط من زمرة الأنعام، وتلك الحواجب قد ترد على الحواس التي تستقبل المعارف أو على عملية التفكر التي تحلّل تلك المعطيات وتفرز الصحيح عن الخطأ، ولعل أخطرها على العقل هي آفة التقليد من غير بينة.

التقليـد:

والتقليد في أصل الوضع اللغوي يدل على تعليق شيءٍ على شيء[60]، وليس كل اتباع للغير مذموما، فقد يتبع الإنسان من هو أعلم منه مع التيقظ المستمر تجاه ما يتلقاه منه وفتح السمع والبصر عما يجول بالجوار من أفكار،

---

58. الأعراف، 179.

59. الإسراء، 36.

60. ابن فارس، معجم *مقاييس اللغة*، 19/5.

ولكن إذا تجاوز التقليد إلى أن يكون تعصبا أعمى مانعا عن النظر فيما يقال، صادّا عن إلقاء السمع والبصر لغيره ممن خالفه، أو حاجزا له عن الأخذ بالحق متى تبدّى له وظهر– فذلك هو التقليد المذموم في القرآن، والذي لا يضمن صاحبه أن يكون مستقرا على ضلالة وهو مستنكف عن سماع ما يقال له، يقول محمد رشيد رضا: " التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه يكون له مانعا باختياره من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فهو لا يستمع إلى متكلم ولا داع لأجل التمييز بين الحق والباطل، وإذا وصل إلى سمعه قول مخالف لما هو دين له أو عادة لا يتدبره ولا يراه جديرا بأن يكون موضوع المقابلة والتنظير مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة..."[61]، ويقول كذلك: " وَلِضَعْفِ الْعَقْلِ أَسْبَابٌ: مِنْهَا: مَا هُوَ فِطْرِيٌّ كَمَا هُوَ حَالُ أَهْلِ الْبَلَهِ وَالْعَتَهِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُكَلَّفُ صَاحِبُهُ وَلَا يُلَامُ، وَمِنْهَا: مَا يَكُونُ مِنْ فَسَادِ التَّرْبِيَةِ الْعَقْلِيَّةِ كَمَا هُوَ حَالُ الْمُقَلِّدِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ، وَإِنَّمَا يَكْتَفُونَ بِمَا عَلَيْهِ قَوْمُهُمْ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْخَيَالَاتِ، وَيَرَيْنُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا يَكْسِبُونَهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَمَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ، وَلَا يَعْتَنُونَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ تَمْزِيقِ هَذِهِ الْحُجُبِ وَإِزَالَةِ هَذِهِ السُّحُبِ، لِلْوُقُوفِ عَلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ مُخَدّرَاتِ الْعِرْفَانِ وَنُجُومِ الْفُرْقَانِ وَشُمُوسِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَكْتَفُونَ بِمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (43 : 23) حَتَّى يَجِيءَ الْيَوْمُ الَّذِي يَقُولُونَ فِيهِ: (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)"[62].

والقرآن الكريم يُحيل ضلال كثير من الأقوام إلى التقليد، فلنتدبر –مثلا– هذه الآيات الكريمة: "وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"[63]، فتعلقهم بما وجدوا عليه من سبقهم منعهم عن النظر فيما يقال لهم، وقد تختلف الضلالات التي يتمسك بها المقلّد ولكن المنهج نفسه، من ذلك نجد قول الله تعالى" وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "[64]، وقوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"[65]، والله تعالى ينبّئنا أن التقليد المدفوع بعصبية أو حمية سينقلب يوم القيامة عداوة

61. محمد رشيد بن علي رضا، *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م، 347/7. وقد شن في كتابه هذا هجوما واسعا على التقليد واعتبره السبب الرئيس لانتشار بعض المعتقدات التي تناقض الوحي.

62. المرجع نفسه، 130/1.

63. الزخرف، 15-25.

64. الأنبياء، 51 – 54.

65. المائدة، 104.

وبغضاء: " إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ"[66].

وتكريسا لمرض التقليد ترى طوائف المسلمين تتسابق في الانتساب إلى النجاة وتتبارى في حمل الألقاب الأخّاذة، وادِّعاء الفرقة الناجية رجما بالغيب، وهم في ذلك كله يفسّق بعضهم بعضا ويكفر بعضهم بعضا، وكأن وحيا من الله تعالى أخبرهم أن فريقا واحدا جُمع له الحق كله وعلى الإنسان أن يختار إحدى الفرق فينضم إليها وينصرها!، بل إننا نجد من يعتقد أن عقل رجل واحد حاز وحده على كمال الحق وتمامه؛ فترى الألوف المؤلفة من خلق الله تعالى تتعصب له وتتبعه حذو القذة بالقذة ولا يحيدون عن نهجه طرفة عين!، ونسوا أو تناسوا أنه ليس من أسئلة الله تعالى لعباده يوم العرض سؤال عن الفرقة المنتمَى إليها أو العالم المتبوع، وإنما السؤال الوحيد هو "أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ"[67]، و "أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ"[68]، والمعيار الوحيد للحساب: "يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[69]، "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى، فَأَمَّا مَنْ طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى"[70]، فالجزاء مسؤولية فردية، ولا يمكن لأحد أن يتستر خلف فرقة أو عالم أو حتى نبي مرسل، والكل مسؤول عن أفكاره وأعماله.

ولعل المقام سانح الآن لنسوق واحدة من روائع السيد رشيد رضا يجمل فيها الرؤية القرآنية عن التقليد، ويصف ما آل إليه واقع المسلمين، فيقول:

"كُلُّ مَا نَزَلَ مِنَ الْآيَاتِ فِي مَدْحِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ وَاسْتِقْلَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَحُرِّيَّةِ الْوِجْدَانِ يَدُلُّ عَلَى ذَمِّ التَّقْلِيدِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَمِّهِ وَالنَّعْيِ عَلَى أَهْلِهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (2 : 170) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ يَاأَيُّهَا) (5 : 104) ذَمَّهُمْ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ : (إِحْدَاهُمَا) الْجُمُودُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَالِاكْتِفَاءُ بِهِ عَنِ التَّرَقِّي فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ الْعَاقِلِ ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ تَقْتَضِي النُّمُوَّ وَالتَّوْلِيدَ ، وَالْعَقْلُ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ وَالتَّجْدِيدَ . (وَالثَّانِيَةُ) أَنَّهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ لِآبَائِهِمْ قَدْ فَقَدُوا مَزِيَّةَ الْبَشَرِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ،

---

66. البقرة، 166-167.

67. غافر، 50.

68. الأنعام، 130.

69. الأعراف، 35.

70. النازعات، 35 – 41.

وَالْحُسْنِ وَالْقَبِيحِ ، بِطَرِيقِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَطَرِيقِ الِاهْتِدَاءِ فِي الْعملِ ... .

فَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ يَهْدِي جَمِيعَ مُتَّبِعِي الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ إِلَى اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ مَعَ ضَمَائِرِهِمْ لِلْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْهُدَى فِي الدِّينِ، وَأَلَّا يَكْتَفُوا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَأَجْدَادُهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذَا جِنَايَةٌ عَلَى الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَالْقَلْبِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا الْبَشَرُ، وَبِهَذَا الْعِلْمِ وَالْهُدَى امْتَازَ الْإِسْلَامُ وَدَخَلَ فِيهِ الْعُقَلَاءُ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ أَفْوَاجًا ، ثُمَّ نُكِسَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى رُءُوسِهِمْ وَاتَّبَعُوا سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ فِي التَّقْلِيدِ لِآبَائِهِمْ وَمَشَايِخِهِمُ الْمَنْسُوبَيْنِ إِلَى بَعْضِ أَئِمَّةِ عُلَمَائِهِمْ ، الَّذِينَ نَهَوْهُمْ عَنِ التَّقْلِيدِ وَلَمْ يَأْمُرُوهُمْ بِهِ ، فَأَبْطَلُوا بِذَلِكَ حُجَّةَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْأُمَمِ وَصَارُوا حُجَّةً عَلَى دِينِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ أَدْعِيَاءَ الْعِلْمِ الرَّسْمِيِّ فِيهِمْ يُنْكِرُونَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ كِتَابِ اللهِ وَهَدْيِ رَسُولِهِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ أَهْلِهِ وَنَحْنُ مَعَهُمْ فِي بَلَاءٍ وَعَنَاءٍ ، نُقَاسِي مِنْهُمْ مَا شَاءَ الْجَهْلُ وَالْجُمُودُ مِنِ اسْتِهْزَاءٍ وَطَعْنٍ وَبِذَاءٍ ، وَتَهَكُّمٍ بِلَقَبِ (الْمُجْتَهِدِ) الَّذِي احْتَكَرَهُ الْجَهْلُ لِبَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْعُلَمَاء"[71].

خاتمة لأهم النتائج

بعد هذه الجولة الممتعة تحت ظلال آيات الله تعالى الوارفة باحثين عن موقع العقل والتفكر في المنهج القرآني – حري بنا أن نجمل ما استخلصناه في نقاط:

- إن القرآن الكريم يعتبر العقل مصدرا أساسيا أصيلا لتحصيل المعارف.
- أناط الله تعالى مسؤولية التكليف وقيام الحجة بالعقل، وأحال سبب هلاك الهالكين إلى قعودهم عن التفكر والتعقل.

[71]. محمد رشيد رضا، *تفسير المنار*، 207/11، 208.

- العقل والوحي في الرؤية القرآنية متوافقان متكاملان غير متنازعين ولا متقابلين، ولا يتقدم أحدهما على الآخر ولا يصادر أحدهما الآخر، فالعقل أداة لفهم الوحي وتصديقه، والوحي وسيلة للرقي بالعقل ومنطقه ووعيه، وزيادة مناعته ضد الباطل.
- لا الوحي مقدم على العقل ولا العقل مقدم على الوحي، وهي مقارنة غير سديدة أساسا؛ لأنها مقارنة بين مختلفين في الطبيعة، فالوحي موضوعات ومنهج والعقل أداة ومَلَكة.
- الوحي يدعو إلى أقصى درجة التعقل، لأنه مهما تحررت العقول اقتربت من الوحي، ومهما تحجرت وتعصبت إلا وابتعدت عن الحقيقة.
- لقد ساير الله تعالى في كتابه العزيز منهجية الإنسان ومنهجه في التفكير وبلوغ الحقائق –والتي هي أساسا من خلقه وإبداعه سبحانه–، فلم تكن آيات الذكر مفاهيم دوغمائية، بل كانت تنساب مع التسلسل المنطقي الذي يبني به الإنسان أفكاره وتصديقاته عادة، فانطلق معه من التصورات الجلية، ثم صاحبه في البناء الاستدلالي الواضح المتين للوصول أخيرا إلى تصديقات إيمانية راسخة، وهو في كل ذلك يستفز! العقل ويدعوه إلى مزيد من التفكر والتذكر والتدبر.
- القرآن الكريم لم يقف عند عتبة الكلام عن جواز إعمال العقل وفائدته، بل جاوز ذلك إلى اعتباره مسؤولية يترتب عليها الجزاء والعقاب، فنجد أن القرآن الكريم لم يعتبر عملية التعقل والتفكر عملية تحسينية مندوب إليها، بل اعتبرها مسؤولية يجازى عليها.
- ولم يقف من تلك المسؤولية موقفا سلبيا، بل صاحب الإنسان في مسيرة صقل تلك المَلَكة التعقلية وصيانتها، ففضح له المعيقات والمؤثرات التي قد تغشى العقل وتقعده عن وظيفته السامية كآفة التقليد.

مصادر المقال ومراجعه

- ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، *التحرير والتنوير*، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، دط، 1997م.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، *لسان العرب*، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر، دط، 1388هـ/ 1967م.
- الألوسي، محمود الألوسي أبو الفضل، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الجرجاني، *كتاب التعريفات*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2، 1413هـ/1992م.
- رودرك م . تيشزهولم، *نظرية المعرفة*، تعريب: د. نجيب الحصادي، مصر: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط1، 1995م.
- الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- العاملي، حسن محمد مكي العاملي، *نظرية المعرفة (المدخل إلى العلم والفلسفة والإلهيات)*، لبنان: الدار الإسلامية، ط1، 1411هـ/1990م.
- الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، *التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب*، طبع دار الفكر، ط 3، 1405هـ/1985م.
- الكردي، راجح عبد الحميد الكردي، *نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة*، المملكة العربية السعودية: مكتبة المؤيد- ، ط1- 1412هـ/ 1992م.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، *الكليات*، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، لبنان: مؤسسة الرسالة، 1419هـ - 1998م.
- محمد رشيد بن علي رضا، *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- المظفر، محمد رضا، *المنطق*، لبنان: دار التعارف للمطبوعات، دط، 1414هـ/ 1995م.
- الوارجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، *الدليل والبرهان*، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، دط، 1403هـ /1982م.